عبد الرحيم على يكتب:

دروس الزعيم خالد محيى الدين

■ سميت ابنى خالد تيمنًا بإسمه ■ رفض إبعادى عن تغطية أخبار وزارة الداخلية فى عهد حسن الألفى ■ علمنى المساندة فى الحق والتخلى عن الكاذب والمهمل فى العمل ■ توسط لى فى الحصول على شقة عندما أتيت من قريتى

عندما قابلته للمرة الأولى كنت صحفيًا شابًا لم أتجاوز الثالثة والعشرين من عمرى، أتيت من صعيد مصر أحلم بالحرية والعدالة الاجتماعية بحق الفقراء فى لقمة عيش نظيفة وشربة ماء وعلاج مجانى يليق بمعاناتهم، لم أجد غير باب اليسار مفتوحا لى على مصراعيه، أنا ابن الفقراء نحيل الجسد والروح، ألهث من غيرة على بلادى.

استقبلنى العظيم خالد محيى الدين بمكتبه فى «واحد شارع كريم الدولة»، كنت مزهوًا بنفسى لكن ليس للحد الذى أرى فيه الزعيم وجهًا لوجه، عضو مجلس قيادة ثورة يوليو زعيم اليسار.

سلم علىّ بترحاب وكأنه يهدئ من روعى قائلا: أراك غدا فى التاسعة وأنهى اللقاء، خرجت غير راض فقد كنت أعتقد أن المقابلة ستطول، سيسأل عن أحوالى، كيف أعيش فى قاهرة المعز بعد أن غادرت بلدتى فى الصعيد، بناءً على استدعاء من الجريدة للعمل مندوبا لها فى وزارة الداخلية، اعتقدت أنه سيسألنى كيف سأتعامل مع هذا المرفق الحيوى المهم، سيطلعنى على الخطوط الحمراء التى لا يجب علىّ أن أتجاوزها، ولكن اللقاء لم يدم أكثر من دقيقتين وانتهى بموعد صباح اليوم التالى.

قضيت ليلتى أفكر تُرى ماذا سيقول لى الأستاذ خالد، وظللت أجهز أجوبتى المنطقية على أسئلته المفترضة.

فى الصباح ذهبت مبكرا، شربت قهوتى من أيدى عم عبده، رحمه الله، وانتظرت مع هدى سكرتيرة الزعيم فى مكتبه.

جاء الأستاذ خالد فوقع بعض الأوراق سريعًا ثم اصطحبنى وهبطنا درج السلم المؤدى إلى الشارع ثم دلف بى إلى سيارته، سيارة "لادا ستيشن" خضراء، لا أدرى لماذا تخيلت أن سيارة الزعيم لا بد أن تكون مرسيدس سوداء ولكن خابت توقعاتى.

فى السيارة قال لى الأستاذ خالد: هل أنت متزوج؟ قلت له نعم.. ولديك أبناء؟ قلت لدىّ ابنة واحدة، وعندما سألنى عن اسمها كنا قد وصلنا إلى باب مبنى محافظة القاهرة، كان المحافظ فى انتظار الزعيم، حيث بادره الأستاذ خالد بالقول لقد أتينا بهذا الشاب من الصعيد ليكون مندوبا للجريدة فى وزارة الداخلية وهو متزوج ولديه طفلة لذا نريد له شقة بمساكن الصحفيين.

اندهشت كما اندهش المحافظ اللواء عمر عبدالآخر، وقال له هل أتيت سيادتكم بنفسك لكى تطلب هذا الطلب البسيط، وعلى الفور أنهى المحافظ الإجراءات الإدارية وبعد ساعتين كنت قد حصلت على مفتاح السكن فى قاهرة المعز مصحوبًا بإعفاء من المقدم.

درس بسيط فى إجراءاته، عميق فى معانيه، أعطاه لى الزعيم فى أول أيامى فى بلاط صاحبة الجلالة، كيف يحافظ القائد والزعيم والمسئول عن كرامة مَن يعملون معه ولو كانوا فى عمر أبنائه.

لم يمض على هذا الحدث سنوات قليلة حتى تصادمت فى أول حياتى بوزير الداخلية حسن الألفى، أثناء معركته مع جريدة الشعب، فقد تناولت فى تقرير لى نقاط الضعف فى موقف الوزير بتلك المعركة، الأمر الذى دفعه إلى استصدار تعليماته بعدم دخولى الوزارة، ولم يسمح لى بالدخول مرة أخرى إلا بعد تدخل المرحوم اللواء رءوف المناوى، لينهى الموقف شريطة أن أبلغ الزعيم خالد محيى الدين برغبة الوزير فى أن يزوره بمكتبه بالوزارة فى أسرع وقت.

أخبرت الأستاذ خالد برغبة الوزير حسن الألفى فى لقائه فلم يتردد الرجل، حددنا الموعد سريعًا وذهبت معه، لم أعلم أنهم يخططون لكى يوقعوا بينى وبين الزعيم حتى أترك موقعى كمندوب لجريدة الأهالى بوزارة الداخلية، ويأتوا بشخص بعينه كان يعمل معهم منذ فترة بعيدة، وكان مريحًا لهم إلى حد ما، حاول اللواء رءوف المناوى إقناع الأستاذ خالد بأن يتم اللقاء مع الوزير دون حضورى، وكنت أرى وجاهة فى الأمر، فلربما هناك أشياء ستحكى فى هذا اللقاء لا يجب علىّ أن أعرفها، ولكننى فوجئت بالأستاذ خالد يتمسك بحضورى، حيث رفض بلطف طلب اللواء رؤوف المناوى رحمة الله عليه، أننى لا أخفى شيئا عن أعضاء الحزب وكوادره خاصة من الشباب فى إشارة إلىّ، وقد كنت، آنذاك، أصغر عضو باللجنة المركزية للحزب.

فى اللقاء حدث ما كان يتوقعه الأستاذ خالد، وما فهمته منه فيما بعد، حيث عاتبه الوزير لموقفى من معركته مع جريدة الشعب، وألمح إلى ضرورة تغييرى بشخص آخر، فانبرى الأستاذ خالد للدفاع عنى دفاعا لم أتوقعه على الإطلاق، خاصة فى مواجهة وزير الداخلية، وفى نهاية اللقاء أوضح الأستاذ خالد للوزير طريقة اختيار المندوبين فى جريدة الأهالى، الناطق الرسمى باسم حزب التجمع، حزب اليسار المصرى، حيث لا يجوز لرئيس التحرير تغيير المندوب إلا وفق قواعد محددة وأنه سيجلس معى شخصيًا لحثى على مزيد من التعاون، وأنه ضامن لى بشكل شخصى وضامن لحسن أدائى.

خرجت من اللقاء وأنا أزهو بقائدى وبحزبى وبجريدتى، عاقدًا العزم أن أقدم الغالى والنفيس فى سبيل رفعتهم.

كان هذا هو الدرس الثانى الذى أعطانى إياه الأستاذ خالد محيى الدين، أن تقف مع المحرر طالما هو على حق فلا تخذله إلا إذا أخطأ فى قول الحقيقة وليس العكس.

ومرت السنون وجاء يوم رأيت فيه الوجه الآخر للزعيم، فقد كان غاضبًا جدًا منى فاستدعانى إلى مكتبه وقال لى بلهجة حادة: ماذا كتبت اليوم؟ قلت له كتبت تقريرًا حول القبض على مجموعة من ضباط الشرطة والجنود الذين يبيعون الذخيرة والسلاح الميرى للإرهابيين فى الصعيد، سألنى بلهجة حادة: وهل هذا مؤكد؟ قلت له معلوماتى تقول بذلك وهناك ثلاثة ضباط على الأقل تم اعتقالهم قبل يومين ومودعين بسجن بنى سويف العمومى، أحدهم أعرفه معرفة شخصية وأعرف عائلته.

قال لى الأستاذ خالد لقد اتصل بى الوزير غاضبا ومحتجًا وقال لى: إن الخبر عار تمامًا من الصحة، وأنه سيعقد مؤتمرًا صحفيًا عالميًا اليوم لتكذيبه.. غدًا تقدم استقالتك على الفور أو نصدر قرارًا بفصلك.

خرجت من مكتبه وأنا محطم تمامًا، فها هو سندى فى الحياة، بعد الله، يخذلنى ويتخلى عنى، هكذا أحسست، لم يكن هو فقط من فعل ذلك فى ذاك اليوم الكئيب، ولكن الجميع حتى أصدقائى فى الوزارة أغلقوا الخطوط فى وجهى، لم يعد أحد قادرًا على استقبال مكالمة منى، خوفًا من الوزير.

سلمت أمرى إلى الله وكنت أعرف أننى على حق، ذهبت عند أحد الأصدقاء وانتظرت صدور الحكم بإعدامى.

فى الخامسة تحدثت مع صديقى العزيز محمد صلاح الزهار، وكان مندوبًا للأخبار فى الوزارة، لكى أطمئن ماذا حدث، إذ لم تكن هناك مواقع إنترنت تنقل الخبر فى لحظته، وعندما جاءنى صوته ضاحكًا على الجهة الأخرى اطمأننت، قال لى الزهار لقد أنقذتك العناية الإلهية، فقد ألغى الوزير لسبب غير مفهوم المؤتمر الصحفى واكتفى ببيان اعترف فيه بالواقعة، وقال: إن الوزارة ألقت القبض على ثمانية وعشرين ضابطًا وجنديًا متهمين ببيع الذخيرة الخاصة "بالتدريب" للإرهابيين فى الصعيد.

تنفست الصعداء، وفى الصباح التقيت الأستاذ خالد محيى الدين بوجهه الآخر الذى أعرفه ويعرفنى، ليشد على يدى ويتمنى لى التوفيق بابتسامة رقيقة لم تفارق خيالى حتى الآن.

كان هذا هو الدرس الثالث، الذى أعطاه لى العظيم خالد محيى الدين، أننى سأساندك طالما كنت على الحق مهما كلفنى ذلك، لكننى سأغضب أشد الغضب وسأتخلى عنك لو كنت كاذبًا أو مهملا فى عملك، إلى حد إطلاق الشائعات التى لا تمت للحقيقة بصلة، والتى تضر الأمن القومى للبلاد.

وتمضى الأيام وتأتى الصفقة الكبرى بين الحكومة، آنذاك، وجماعات العنف الدينى فى مصر.

وكعادتى أقف وحيدًا أدافع عن فكرتى فى أن هذه الصفقة ستكلف البلاد الكثير إن لم يكن اليوم فغدًا، فهؤلاء الشباب يعملون وفق فقه الضرورة، تلك التى تحتم عليهم إجراء مصالحة مع الدولة فى أوقات المحن والضعف، خاصة إذا كانت دولة قوية ذاتَ شرطة وجيش قوى، كما أكدوا فى مراجعاتهم.

لم يكن هناك موقف مبدئى لتلك الجماعات من ممارسة العنف ضد الدولة والمجتمع قدر ما هو موقف مبنى على فقه الضرورة، حتى إذا ما تبدلت المواقف وضعفت الدولة كما حدث بعد 25 يناير 2011 كانت كوادر تلك الجماعات، كما توقعت، فى طليعة من نهشوا لحمها وهرسوا عظمها وبنوا به سلما للصعود إلى السلطة.

كان المرحوم الدكتور رفعت السعِيد والزعيم خالد محيى الدين أول مَن ساعدانى ووقفا بجانبى فى تلك المعركة الطاحنة، متصدين لتهديدات وزير الداخلية آنذاك، الذى أنكر وجود الصفقة وادعى أنها من بنات أفكارى، لكن تمضى الأيام وسرعان ما تتكشف كل الأمور.

لم يكن هذا الدرس بالطبع من دروس الزعيم الأخيرة، فقد تلتها وسبقتها دروس عديدة تحدد معدن الرجل وقيمته وإيمانه العميق قولا وفعلا بالحرية وبالإنسان، تلك الدروس الكبيرة ما زالت تسكننى وتمنحنى اليقين وما زلت أمنحها لأولادى كل يوم، إحساسا منى بأننى مدين بها له ولهم.

فسلامٌ على الزعيم خالد محيى، وتظل ذكراه باقية ما بقى الزمان.

«عِيال» رفعت السعيد

■ لم نستطع أن نسبق خطاه.. وكنا نحبه بقدر ما ننتقده ■ كان يسبقنا دائمًا رؤية وتحليلًا وتجاوبًا وتعاملًا مع الواقع عشقنا روحه وانتقدنا الظروف التى منعتنا من تحقيق أحلامنا ■ أتينا من قُرانا البعيدةِ محملين بأحلام الفقراء فى الخبز والحرية

كانٍ يحلو للبعض أنٍ يُطلق علينا هذا المصطلح، الذى لا يخلو من مُشاكسة، لكننا كُنَّا نُحَبه.. لا لشىء إلا لأن نسبتنا لرفعت السعيد فى حدِّ ذاتها كانت شرفًا لا يضاهيه شرَف. فقد كُنَّا مُتهمين، نحن وهو، من قبل مُنظِّرى اليسار الثورجى، بأننا من أنصار الدولة الوطنية، وبأننا بالتبعية نقع فى خانة العداء للقوى الثورية – تلك القوى- التى كان يحتل تنظيمُ الإخوانِ، آنذاك، القلبَ منها على حد زعمهم.

أتذكرُ كيفَ أتينَا من قُرانا البعيدةِ إلى قاهرة المعز، محملين بأحلام الفقراء فى الخبز والحرية، توجهنا مباشرةً نحو مكتبه، فقد كان قبلةَ كل اليساريين آنذاك.. شاغبناه كعادتنا وتناقشْنَا معه، واحتدَّ النقاشُ حولَ تراجع دور اليسار فَى المجتمع المصرى، وضحكَ رفعت السعيد قائلًا: «يأتى زمانٌ ونشغل عنه وأنتم ستبكون، وزنان مختلفان وقلب تقاسمه جدولان من الحب والضرب».

كانت جريدةُ «الأهالى» وقتَها توزِّعُ مائةً وخمسينَ ألفَ نسخة، وكان حزبُ التَّجمعِ يقول بالفم المليان «لن ننتخب مبارك لفترةٍ ثانية». كنا نرى كل ذلك «هراء» لأنه لم يأت فى إطار الدعوة إلى الفوضى -أقصد الثورة- كما كُنَّا نودُّ ونعَتقدُ فى ذَلك الزمَان. كُنَّا صغارًا وقتها، قلنا فيه ما قال مالكُ فى الخمر؛ لكننا عشقنَا روحهَ، لم نكن ننتقده، كنا ننتقد الظروف التى منعَتنا من تحقيق أحلامنا، فى وطن ينتمى إلينا وننتمى إليه. لم نأت من الطبقة الوسطى، كنا أبناءَ الفقراء ندعى.. ولم نـزل، لَم نتنكر يومًا لماضينا، ولا لأهالينا ولا لمعلمينا.

ورحل المعلَّمُ فى مثلِ هذا اليوم منذ ستة أعوامٍ، وآن لى أن أعترف، كما اعترف لى، من قبل، كل زملائى من متمردى اليسار، بأننا كنا نحبه بقدر ما كنا ننتقده، ربما لأننا لم نكن نستطيع أن نسبق خطاه، هو الشيخ المُسن ونحن الشباب، كان يسبقنا دائمًا رؤية وتحليلًا، وتجاوبًا وتعامَلًا مع الواقع، وحين انكفأنا نلاحق أحلامنا، كان يقبع هو على الواقع، دراسة وتحليلًا، ويخرج منه بالرؤية الثاقبة والموقف الصحيح.

تباركت يا معلمنا وتبارك اسمك ورسمك وتاريخك وسيرتك العطرة.. وتبقى دائمًا تنير لنا الطريق على مر الزمان.